بينَ التَّسامُحِ واللاتسامُحِ مساحاتٌ شاسعةٌ؛ فأحدُهُمَا نقيضُ الآخرِ، ولكنَّ الإقرارَ بمبدأ التَّسامُحِ يعني ضمنًا وجودَ إشكاليةٍ تقتضِي مُعالجتَهَا عَبْرَ ترسيخِ هذا المصطلحِ، مِن هُنا فإنَّ فرضيَّةَ حاجتِنَا في مجتمعاتِنَا المعاصرةِ إلى نشرِ فضيلةِ التَّسامُحِ هي حاجةٌ كاشفةٌ لإشكاليَّاتٍ موجودةٍ بالفعلِ.
أمَّا اللاتسامُحُ فبالرغمِ من كونِهِ يمثلُ النَّقيضَ، لكنَّهُ كاشفٌ للحقيقةِ الكامنةِ في العديدِ من المجتمعاتِ المعاصرةِ، وأنَّ هناكَ قضايا ينبغِي معالجتُهَا بصورةٍ تقومُ على البحثِ عن أسبابِ هذا اللاتسامُحِ.
مِن هُنا فإنَّ الغَوْصَ في عُمْقِ المجتمعِ المصريِّ سيكونُ كاشفًا، هلْ هذا المجتمعُ متسامحٌ مع الآخرِ؟
في حقيقةِ الأمرِ يبدو لنا حينَ سَبْرِ غَوْرِ الثَّقافةِ المصريَّةِ ومرادفتِهَا نجدُ مصطلحَ التَّسامُحِ لا محلَّ له من الإعرابِ في هذهِ الثَّقافةِ، فهذا المجتمعُ يعرفُ شيئًا آخرَ نستطيعُ أنْ نُطْلِقَ عليه التَّعايشَ، أدركَ المصريونَ منذُ قديمِ الأزلِ تَنَوُّعَ الأعراقِ والأفكارِ وفكرةِ التَّنوُّعِ الإنسانيِّ، لذا كانتْ مصرُ بلدًا للمهاجرينَ القادمينَ من أثيوبيَا، أو من أفريقيَا، أو من آسيَا عَبْرَ فَلسطينَ، أو من غربِهَا، الذينَ حكمُوا مصرَ في أواخرِ العصورِ الفرعونيَّةِ، أو حتَّى في العصورِ العربيَّةِ الإسلاميَّةِ المتتاليَةِ حتَّى العصرِ الحديثِ، ثُمَّ في العصرِ الحديثِ والْحِقَبِ المعاصرةِ، حيثُ عاشَ الأجانبُ في عمقِ الرِّيفِ المصريِّ يونانيونَ وإيطاليونَ؛ وأخذوا لقبَ الخواجةِ، وصارُوا نسيجًا من حياةِ المصريينَ.
هذا البلدُ الذي يمتصُّ الغُرَباءَ، ثُمَّ يعطيهِمْ شخصيتَهُ، سُرعانَ ما يجعلُهُمْ جزءًا من نسيجِهِ، بل يجعلُ من بعضِ الكلماتِ اللغويَّةِ الوافدةِ من لغتِهِم جزءًا من العاميَّةِ المصريَّةِ على نحوِ الكلماتِ الإيطاليَّةِ: «اِسْتَبِينَا - أي: اتَّفَقْنَا»، «فَالْصُو - أي: مُزَيَّفٌ»، «بَسْطَا - أي: نوعٌ من الحلوياتِ والجَاتُوه»، وهكذا.
حينَ تغلَّبَ العربُ على مصرَ المسيحيَّةِ، وصارُوا حُكَّامًا تَنَفَّستِ المسيحيَّةُ المصريَّةُ الصَّعَدَاءَ، وتَنَفَّسَ مسيحيُّو مصرَ الحياةَ، فرأينَا أوراقَ البرديِّ تُكْتَبُ بالقبطيَّةِ ثُمَّ العربيةِ لتعكسَ المعاملاتَ اليوميَّةَ بينَ عربِ مصرَ وأقباطِهَا، ثُمَّ رأينَا الأناجيلَ تُكْتَبُ بالعربيَّةِ والقبطيَّةِ، إلى أنْ نصِلَ إلى أنَّ العديدَ من الكلماتِ المصريَّةِ القديمةِ مازالتْ دارجةً في العاميَّةِ المصريَّةِ من القبطيَّةِ يستخدمُهَا المصريُونَ حتَّى في المناسباتِ الإسلاميَّةِ مثل:

«وَحَوِي يا وَحَوِي»، و«مدَمِّس - أي: الفولُ المطبوخُ»، و«بِسْ - أي: القطَّةُ»، وغيرها.
هذا جلدٌ اسمُهُ مصرَ، لديهِ ركامٌ فوقَ ركامٍ، طبقةٌ فوقَ طبقةٍ، عصرٌ يراكمُ ثقافتَهُ معَ عصرٍ آخرَ، هذا الوخمُ لم يُنْتَجْ عنه شيءٌ اسمهُ اللاتسامُحُ بل التَّعايشُ، فأصبحَ جزءًا من نسيجِهِ، حتى رأينَا «ماكس هركز» اليهوديَّ المجَرِيَّ ذا الأصولِ الألمانيةِ مع نهاياتِ القرنِ التاسع عشر وبدايات القرنِ العشرين يرأسُ لجنةَ حفظِ الآثارِ العربيَّةِ، فيسجلُ المساجدَ ويحافظُ عليها ويرممُهَا.
ورأينَا «ماريو روسو» المسيحيَّ الإيطاليَّ يُشَيِّدُ مساجدَ في القاهرةِ والإسكندريةِ في النِّصفِ الأوَّلِ من القرنِ العشرين، ويجددُ طُرُزَ عمارةِ المساجدِ، مستوحيًّا هذا التَّجديدَ من رُوْحِ العمارةِ المملُوكِيَّةِ ذاتِ الشَّخصيَّةِ المصريَّةِ.
لذا يهودُ مصرَ في كلِّ مكانٍ في القاهرةِ والإسكندريةِ، لم نرَ لهم تمركزًا قويًّا سوى في حارةِ اليهودِ بالجمَّاليةِ في القاهرة؛ بسببِ احترافِ عددٍ كبيرٍ منهم صناعةَ وتجارةَ الذَّهبِ والفضةِ، لم يكونوا في جيوتو -في أيِّ مدينةٍ مصريّةٍ، كانوا جزءًا من نسيجِ مصرَ، حتَّى دخلتْ كلماتٌ عِبْرِيَّةٌ في مصطلحاتِ صناعةِ الذَّهبِ والفضةِ، وضمنِ مترادفاتٍ لغويَّةٍ لهذه التِّجارةِ، مازالت تُسْتَخْدَمُ حتَّى اليوم دونَ أدنى غضاضةٍ من تجارٍ مسلمينَ ومسيحيينَ بعد أنْ تركَ اليهودُ هذه الصِّناعةَ والتِّجارةَ.
إذًا .. ماذا حدثَ في مصرَ؟!
حدثَ شيءٌ ما، وُلِدَ شيءٌ ما ضِدَّ فكرةِ التَّعايُشِ التي هي أعمقُ بكثيرٍ من فكرةِ التَّسامُحِ، فالتَّسامُحُ يعني ضمنًا أنَّ هُنا اختلافًا وتَبَاينًا، عَلَيَّ أنْ أقبلَهُ وأنْ أتسامَحَ مع وجودِهِ، ولكن التَّعايشَ هو أنَّني والآخرَ نعيشُ سويًّا نتشاركُ الوطنَ والشَّارعَ والمنزلَ، لنَا كافَّةُ الحقوقِ والواجباتِ، نتشاركُ المناسباتِ والأحزانَ والأفراحَ.
ما حدثَ في مصرَ..؟
كان نتيجةً للاستعمارِ البريطانيِّ في مصرَ، الذي جعلَ في بعضِ الأحيانِ هناك أفضليّةً لمصريٍّ على مصريٍّ بالدِّين في العملِ معهُ، حاولَ كثيرًا الإيقاعَ بين شُركاءِ الوطنِ إلا أنَّ «واصف غالي» في ثورةِ مصرَ سنة

١٩١٩م تجاوزَ هذا إلى تقديمِ الوطنِ فوقَ كُلِّ شيءٍ حتَّى أصبحتْ مقولةُ: مصرَ للمصريينَ هي عمادَ ثورةِ ١٩١٩م.
إنَّ قيامَ دولةِ إسرائيلَ على أساسِ مَا يُدْعَى حقُّ العودةِ على أساسٍ ديني أَجَّجَ التَّعصبَ الدينيَّ وعزَّزَهُ، ثُمَّ جاءتْ حُرُوبٌ متتاليةٌ لكي تُغذِّي هذا التَّعصبَ إلى أنْ وصلنا إلى السَّلامِ، ولكنَّ مشاهدَ القتلِ والدَّمِ ما زالت تُعَزِّزُ التَّعصبَ.
هذه الجروحُ التي لم تَنْدَمِلْ بعدُ تحتاجُ في المجتمعِ ما يراه المسلمونَ في السَّيّدَةِ مريم التَّقديسَ؛ هو تقديسٌ لا يقلُّ عن تقديسِ مسيحيٍّ مصرَ لها، حتَّى صارت موالدُ العذراءِ مريم بالمسلمينَ.
إنَّ قناعتنا أنَّنا مسلمون لابدَّ أن نؤمنَ باليهوديّةِ والمسيحيّةِ؛ لكي نصلَ إلى درجةِ الإسلامِ، الذي يجعلُنا نتعايشُ مع هذه الدياناتِ؛ لأنَّنا نؤمنُ بها، لذا ففي مصرَ لا ننادِي بفكرةِ التَّسامحِ والتَّعايشِ الذي جَعلَ المصريينَ في العصورِ الإسلاميَّةِ يولُّونَ أقباطَها لأمانتِهِم وإخلاصِهم، حتَّى في عصورِ الحروبِ الصليبيَّةِ وفي ظِلِّ صلاحِ الدِّين الأيوبيِّ تَوَلَّى مصريٌّ قبطيٌّ له مؤلفاتُهُ؛ هو «أسعد بن مماتي».

***